مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، محمد بن عبدالله ، خاتم النبيين والمرسلين، وعلى آله وصحبه، وسلّم تسليماً كثيراً وبعد :

فإن الأمة إذا ضعفت ظهر فيها التزلّف، وكَثُرَ الجدل ، وبرز التعالم، وزاد الخلاف. وإذا كان الضعف لأسبابٍ خارجيةٍ كسيطرة عدوٍّ ، أو طمعٍ من جوارٍ، أو تسلّطِ غاشمٍ فإن ما يكون من الأبناء أشدّ أثراً ووقعاً مما يكون من الأعداء، ويكون هذا سبب الضعف الداخلي.

ضعفت الأمة الإسلامية لتهاون أبنائها بأمور دينهم قبل كل شيءٍ ، فإن دينهم كان سبب عزّتهم ، وأساس منعتهم، ورفعة مكانتهم، وعلو شأنهم، ثم أهملوا ما أعزّهم الله به فأذلّهم ، فسلّط عليهم الأعداء، فاحتلّوا بعض الديار، وامتدّ نفوذهم على بعضها الآخر بالعلم، أو بالمال، أو بالتهديد ، أو نتيجة الضعف ، أو الشعور بالنقص، والحاجة إلى بعض مقومات الحياة ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

وأصابت الأمة هزّة فتحرّكت عقول بعض أولي الألباب، وكان منهم صادقون، وكان منهم مخلصون، ففي الأمة خير في كل وقتٍ، وفيها رجال صدقٍ في كل حينٍ، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر . عن معاوية ابن أبي سفيان ، رضي الله عنهما ، قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول

(لايـزال مـن أمتي أمة قـائمة بأمـر الله، لا يضرّهم من خـذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتيهـم أمر الله وهـم على ذلك)[1]. وظهرت دعوات للعودة إلى دين الحق، وبـدأت جهود تُبذل لـرأب الصدع، ومحاولات تُعمـل للمّ الشعـث، وبشّرت الدعـوات ، وأثمـرت الجهـود، ونجحت المحـاولات، وظهر الأمل، وتوقّع الناس الخير ، وظنّوا أن الفـرج قريب، وماهو إلا زمن قصير ريثما تتهيّأ النفوس، وتتقبل العقول التي كـانت شاردةً، وتزول منها الأفكار التي كانت مستغربةً.

ثـم ظهرت في السـاحة معـاول الهدم، ويالـلأسف إنها تعمـل باسـم العلـم، وبـاسـم الخير ، وبـاسـم الحق ، وبـاسـم الـدعـوة التـي بهديها الانطلاق، ومن مسارها الإشعاع، إنهم أناس يحسبون أنهم يُحسنون صنعاً، وهم يُفتّتون وحدة الأمة ، ويُفرّقـون كلمتها، ويُشتّتون صفوفها، ويجعلونها مِزقاً، ومع ذلك يصرّون على موقفهم، ويظنّون أنهم على حقٍّ، ولايدرون ما يفعلون.

فطائفـة إذا وجدوا على قـائدٍ زلّةً، أو على عالمٍ هفـوةً، سواء أكـان من رجـال السلف الصـالـح أم من أعـلام الزمـن المعـاصر أقامـوا النكير ، وتكلموا بالسوء، وربما كفّروه، ولم يَعُـدْلهم عدو سواه، ولا أكثر خطراً على الأمـة منه ، الحديـث عنه في المجـالس ، وعلى صفحـات المجلات ، وفي الكتـب والتسجيـلات، وإذا قلت لهم : اتقـوا الله ، قـالـوا : نبيّن الحقَّ ، ونُحذّر الأُمّة. وتنبري طائفة لتدافع عن ذلـك العالم الفاضل، وعما تعتقد أنه على حقّ، ويقـع الخلاف، وتتجزّأ الأمـة، وهم يحسبـون أنهم يُحسنون صنعاً ، والمعول بأيديهم يحملـونه ويعملون به هدماً ، ومـع ذلك يعدّون

(١) متفق عليه.

أنفسهم من أهل العلم.

حبذا لو ينتبهون إلى أنفسهم .

حبذا لو يـذكرون حديث رسول الله ﷺ : (كـل بني آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوابون)[1]، فـالعـالم يخطـىء ، وتقع منـه هفـوات، والجاهـل يخطـىء، والكبير يخطـىء والصغير يخطىء. وخيرهـم مـن يتـوب إلى الله ويستغفره.

حبذا لـو يذكر هـؤلاء فعل أبي لبابة بشير بـن عبدالمنذر مـع يهود بني قريظة، ويعدّ نفسه أنـه خـان الله، ورسوله، وتـاب إلى الله، فأنـزل الله : ﴿ **وآخرون اعترفوا بـذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخـر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم**[2]﴾.

حبـذا لو يـذكرون قصـة حـاطب بـن أبي بلتعـة، ومراسلتـه لقريـش، وإخبارهـم بعزم رسـول الله ﷺ على السير إلى مكة لفتحهـا، والعثور على كتابه، واعترافه ... وتوبته وقبول هذه التوبة من الله ، ورسوله.

حبذا لو يذكرون المخلّفين عـن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك . وتوبتهم ، وتوبة الله عليهم.

إن الله عزوجـل يغفر الذنـوب جميعاً، ويقبل التـوبة. وهؤلاء يـأبون إلا الإصرار على الشتـم، وسوء الكـلام. نرجـو مـن الله لهم الهداية والصـلاح والإقلاع عن الهدم، والعمل على وحدة الأمة.

وطائفـة أخرى تـأخذهـم العصبية النتنـة فلا يـرون إلا أصحابهم على الحق، ولا يعرفون سواهم على الوعـي الصحيح والطريق السليم. وهؤلاء

(١) رواه الترمذي ، وابن ماجة ، وأحمد، والدارمي .

(٢) سورة التوبة : الآية ١٠٢

بحاجة إلى أن يعرفوا خطأهم ، ففي الأمة الخير سواء أكان منهم أم من غيرهم. وندعو لهم كما دعونا لأولئك بالاستقامة ، والسداد، والخير ، والصلاح، والهداية ، لنا ، ولهم.

وهناك من يظنّ أن له مكانةً اجتماعيةً لما يحمل من علم - حسب رأيه - لذا يتكلم دون اهتمام ، ويكتب دون مراعاةٍ لعلمٍ أو لما يجب أن يمتاز به صاحب العلم. فبعضهم قبل أن يخطّ الكتاب يفكّر من يشتم في المقدمة، حتى غدت مقدمات كتبه نماذج في الشتائم، ويجب أنه يشفي غليله، ويُعرّف إخوانه ببعض الناس الذين لا يرتاح إليهم. غير أن أناساً يُؤلمهم أن ينزل مستوى هؤلاء الذين يدّعون العلم إلى هذا المستوى فينتقدون ، وربما كان أحدهم موضوع مقدمة الكتاب الذي سيُعدّ، فينبري لهم من يعجبهم ذلك عصبيةً، ويقع الخلاف ويحدث الشقاق، ويصل الأمر إلى العلماء، فتهزل الأمور .

ومنهم من تغرّه نفسه فيضعها فوق مكانتها، فلو وجّه إليه أحدٌ كلمةً ولو نصيحة اهتزّ كيانه، وإن لم يتكلّم لكن قلمه يعمل مكان لسانه، فإن كان الناصح من جماعةٍ كان حقده عليها عظيماً، وما من فرصةٍ إلا ويُوجّه الطعن، والكلام، ولا يروق هذا التصرّف أهل الخير ، فيُسرّون النصح أو يتكلّمون خيراً ، فيدافع عن الرجل من لا يعرف الحق بعد ، ويكون الخلاف، ويحدث الشقاق. إن النصح لهؤلاء وأولئك، وتذكيرهم بأخلاق العلماء لنوع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن أصاب شرّ أحد الناصحين لموقع المفرّقين للأمة من الأعداء لهو نوع من الجهاد ما دام الناصح يبذل جهداً للخير . وإن جمع كلمة الأمة والعمل على وحدة صفّها لهو نوع من الجهاد ، كما أن الفرقة، وبعثرة الجهود بالعصبية والطعن

لهو نوع من الخذلان الذي يصب في مصلحة الأعداء. وواجب المسلم النصح، فنصحه إبعاد لأخيه عن المهالك ومواطن السقوط والمزالق ، على حين أن التعصّب له باسم الحب والتقدير ليس إلا دفعاً له نحو المهاوي - أعاذنا الله منها - فانتبهوا أيها المسلمون فلا تستهويكم العصبيات للأقاليم، والحزبيات، والصداقات، والمدن، والمشيخة. فالحق أحق أن يتبع ، والنصح واجب، والعصبية منهيٌّ عنها. والنصح يجمع بين القلوب ويُوحّد الأمة، والعصبيات والسباب تنفر ، وتفرّق صفوف الأمة، وهذا ما تعيشه أمتنا بجهود هؤلاء الذين يدّعون العلم ، ويتصدّرون المجالس.

نرجو أن تكون كلمات هذا الكتاب تذكيراً لأولئك الذين يتصدّرون، وتنبيهاً للذين يتعصّبون، وتحذيراً للذين يُغالطون، وينسون آيات الله التي نزلت بأعداء الله، فلا يذكرون خيانتهم وغدرهم، تمهيداً لهم في هذه الأيام، وتقرّباً للذين يقفون بجانبهم، وتزلّفاً لأصحاب المكانة، ومع الأسف، باسم الإسلام يكتبون، ويتكلّمون، ويتصدّرون الحلقات، ويرتحلون، ويرفعون الشعار . نرجو لنا، ولهؤلاء، ولأولئك الصلاح والهداية ، والإفادة مما يُسدى من النصح، بالبعد عن العصبيات، وترك المغالطات. والله ولي التوفيق. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الاستخلاف

اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يخلق على كوكب الأرض مخلوقاً جديداً، ذلك هو الإنسان ﴿ **وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ....**﴾[1].

وعلّم الله هذا الإنسان كل شيءٍ في هذا الكون، وعرّفه أسماء هذه الأشياء كلها، ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون**﴾[2].

وسخّر الله مافي هذا الكون لهذا الإنسان ﴿ **ألم تروا أن الله سخّر لكم ما في السموات وما في الأرض**﴾[3]. و ﴿ **وسخّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾[4]. فالإنسان يستثمر خيرات الأرض، ويستخرج كنوزها ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾[5].

والإنسان يستفيد من الأنهار التي تنبجس من الأرض فتخرج ماءً عذباً، تجمّع في باطن الأرض مما أنزل الله من مياه الأمطار من السماء،

---

(١) سورة البقرة ٣٠. (٢) سورة البقرة ٣١-٣٣. (٣) سورة لقمان ٣٠.
(٤) سورة الجاثية ١٣. (٥) سورة الملك ١٥.

ويشرب الإنسان والحيوان والطير من مياه هذه الأنهار ، ويسقي الإنسان مزروعاته، ويركب على متن الأنهار الكبيرة، ويستخرج منها الأسماك فيأكل لحماً طرياً ﴿ **الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء وأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار** ﴾[1].

ويستفيد الإنسان من البحر ، فيمتطي متنه حيث تمخر السفن عبابه، ويأخذ المرء السمك من جوفه، كما يستخرج منه الأملاح بأنواعها، واللآلىء، وأنواع المرجان، والأصداف. وتعيش في البحار أنواع من أمم الحيوانات فيعتبر المرء من خلْقها، وحياتها ﴿ **وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار** ﴾[1]. و ﴿ **وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً، وتستخرجوا منه حليةً تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾[2]. و ﴿ **وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حليةً تلبسونها، وترى الفلك فيه مواخر ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**[3] ﴾.

والفراغ الذي يحيط بكوكب الأرض مسخر أيضاً للإنسان، إذ في هذا الفراغ الهواء الذي هو عنصر حياة الإنسان الرئيسي، وتهبّ الرياح التي تلقح النباتات، والتي تسوق الغيوم فيهطل الغيث فيسقي الزرع، ويروي الحيوان، ويشرب الإنسان من الماء، ويتغذّى بالنبات والحيوان، كما يتّخذ الحيوان مطيةً له ﴿ **وهو الذي يرسل الرياح بشرىً بين يدي رحمته حتى إذا**

(١) سورة إبراهيم . (٢) سورة النحل : الآية ١٤. (٣) سورة فاطر : الآية ١٢.

أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلدٍ ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون﴾[1] . و﴿ **وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقينا كموه وما أنتم له بخازنين﴾**[2].

والهواء ذو كثافةٍ يجعل إمكانية الطيران، وامتطاء الإنسان لهذا الجو . هذا بالإضافة إلى أن ذرات الهواء تجعل إمكانية وصول أشعة الشمس إلى الأرض فتملؤها ضياءً مع فوائدها الجمّة لجسم هذا الإنسان، وكذلك وصول أشعة القمر التي تُنير الأرض وقت الظلمة، والشمس والقمر آيتان من آيات الله سخّرهما لفائدة هذا المخلوق، فائدة دائبة مستمرة ﴿ **وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار** ﴾[3] . و ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار** ﴾[4]

ومما يمكن أن يفيده الإنسان من الشمس إضافةً إلى ما ذكرنا من الناحية الصحية لجسم الإنسان، والنور، تلك الطاقة الحرارية الهائلة التي لا تنفد - بإذن الله - ما دامت الشمس تؤدي دورها الذي قدره الله لها، ولم يذهب ضوؤها وهو ما يحدث يوم القيامة بإذن ربها ﴿ **إذا الشمس كوّرت . و إذا النجوم انكدرت** [5] ﴾ .

ولم يستفد الإنسان حتى الآن إلا من كمياتٍ ضئيلةٍ من هذه الطاقة الهائلة في مشروعاتٍ قليلةٍ.

وسخَّر الله النجوم ليهتدي بها البشر في طريق سيرهم، ومعرفة توجّههم، فهي إشارات ودلائل للإنسان ﴿ **وهو الذي جعل لكم النجوم**

(١) سورة الأعراف : الآية ٥٧. (٢) سورة الحجر : الآية ٢٢. (٣) سورة إبراهيم : الآية ٣٣.
(٤) سورة الزمر : الآية ٥. (٥) سورة التكوير : الآيتين ١-٢ .

﴿ لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾[1].

وخلق الله الأنعام مطيةً للإنسان، وزينةً ، وطعاماً، ووسيلةً للنقل ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلابشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينةً ويخلق مالا تعلمون ﴾[2].

ويعيش في الأرض وفي الجو مخلوقات كثيرة تشكّل كل فصيلةٍ منها أمةً خاصةً بها، لها أسلوب حياتها، ولغتها التي تتفاهم بها و... ﴿ وما من دابةٍ في الأرض ولا طائرٍ يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾[3].

وفضّل الله الإنسان على بقية المخلوقات إذ جعله المهيمن عليها، وجعلها مسخرةً له. ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾[4]. كما كان خلق الإنسان مميزاً على غيره من المخلوقات ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾[5].

وإضافةً إلى تمييز هذا المخلوق الإنسان على بقية المخلوقات فقد كانت نعم الله كثيرةً ظاهرةً وباطنةً لا تُعدّ ولا تُحصى ﴿ ألم تروا أن الله سخرلكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنةً ...﴾[6] و﴿ وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾[7].

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٩٧.
(٢) سورة النحل : الآيات ٥-٨.
(٣) سورة الأنعام : الآية ٣٨.
(٤) سورة الإسراء : الآية ٧٠ .
(٥) سورة التين : الآية ٤.
(٦) سورة لقمان : الآية ٢٠ .
(٧) سورة نحل : الآية ١٨.

وإن أهمّ مايُميّز الإنسان عن بقية المخلوقات هو العقل الذي يجعل صاحبه يُفكّر فيما حوله، وفي هذا الكون وما فيه من آياتٍ فيعتبر ، ويؤمن، ويسلم أمره كله لخالقه، ويُخلص له النية فيما يعمل، ويتوصل إلى ضرورة العبادة لله، ويعتقد بإرسال الله للأنبياء ليُعرّفوا الناس على منهج الله، وليُعلّموهم العبادة لخالقهم. فالإنسان ليس بحيوانٍ ناطقٍ كما يدّعي الفلاسفة بل هو مخلوق عاقل، إذ لكل أمةٍ من الحيوانات لغة خاصة بها تتفاهم بها فيما بينها ، فالنحل له لغته، وللنمل لغته، ولكل نوع من الطيور لغته، وقد تكون هذه اللغة مسموعةً كدوي النحل، وربما تكون غير مسموعةٍ كلغة النمل . كما أن الببغاء تحاكي أصوات غيرها من المخلوقات وتقلّدها، ومنها الإنسان ، ومع نطقها فهي ليست بإنسان بل مخلوق ناطق.

والإنسان بما وهبه الله من عقلٍ، وبما منحه من قدرةٍ لاستعمال هذا العقل فهو يمكنه التمييز ، كما يمكنة إدراك آيات الله في هذا الكون ، وهو مطلوب منه التفكير دائماً، والتدبّر باستمرار ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار** ﴾[1]. و ﴿ **كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** ﴾[2] . و ﴿ **إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار** ﴾[3].

الكون أرضاً ، وبحراً، وجواً مجال مفتوح لتعرّف الإنسان على آيات الله،

(١) سورة آل عمران : الآية ١٩٠-١٩١.
(٢) سورة البقرة : الآية ٢١٩ و٢٦٦.
(٣) سورة النور : الآية ٤٤.

وأسرار خلقه، ﴿ **يـا معشر الجن والإنـس إن استطعتم أن تنفـذوا مـن أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان** ﴾[1].

فالله سبحانه وتعـالى خلق الإنسان ومنحه مواهب معينـةً تُؤهّله ليكون مستخلفاً في الأرض ويؤدّي دوراً يريده الله له.

(١) سورة الرحمن : الآية ٣٣.